Al-Daleel

Analysis of the Imaginative Faculty in Ibn Sina's Thought and the Methods of Its Management

Mustafa Azizi

Assistant Professor, Department of Philosophy and Theology, Al-Mustafa International University, Iran.
E-mail: m.azizi@aldaleel-inst.com
DOI: https://doi.org/10.64704/aldaleel.2026093102

Abstract

The imaginative faculty (al-mutakhayyila) is one of the internal powers of the human soul, characterized by inherent agency and dynamism; it neither rests nor subsides, nor does it remain occupied for a moment from imagining and picturing when suitable conditions are present. This faculty possesses free access to the repositories of imagination and memory. When the mind falls into a state of negligence and fails to perform its role in monitoring the faculties, this faculty seizes the opportunity and begins weaving fantasies and creating images. The faculty of imagination, through its function of preserving images, and the imaginative faculty through its role in creating images, interact and complement one another: imagination provides raw materials for the imaginative faculty, which in turn sends what it fashions from these materials to imagination for archiving. The most significant functions of the imaginative faculty manifest in composing disparate images and separating connected images. Among the earliest researchers in the field of psychology, Ibn Sina (Avicenna) gave particular attention to the phenomenological properties of the imaginative faculty and sought to propose new solutions and methods for controlling it. These solutions include supervising and monitoring it with the mind, keeping the repository of imagination beyond the realm of utilization, employing the imaginative faculty in a purposeful and systematic manner, strengthening the spiritual and behavioral aspects of the soul, correcting temperament and maintaining bodily health, fulfilling physical needs, and habituating oneself to speaking truth and avoiding falsehood and deception. In this research, the phenomenological properties of the imaginative faculty are examined using the rational-analytical methodology, first, followed by an exploration of its methods of management and control, as well as the consequences and results of runaway imagination from Ibn Sina's perspective.

Keywords: Imagination, The Imaginative Faculty, Ibn Sina (Avicenna), Management, Resaon, Phenomenological Analysis.

Al-Daleel, 2026, Vol. 9, No. 31, PP. 39-59

Received: 07/01/2026; Accepted: 15/02/2026

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

© the author(s)

تحليل القوّة المتخيّلة في رؤية ابن سينا وطرق إدارتها

مصطفى عزيزي
أستاذ مساعد في قسم الفلسفة والكلام، جامعة المصطفى العالمية، إيران.
البريد الإلكتروني: m.azizi@aldaleel-inst.com
معرف الغرض الرقمي: https://doi.org/10.64704/aldaleel.2026093102

الخلاصة

القوّة المتخيّلة هي إحدى القوى الباطنية للنفس الإنسانية، وتتمتّع هذه القوّة بالفاعلية والدينامية بطبعها، فلا تهدأ ولا تسكن، ولا تنشغل لحظةً عن التخيّل والتصوير عند توفّر الظروف المناسبة. ولها حرّية الوصول إلى خزانتَي الخيال والذاكرة، وحينما يمرّ العقل بحالة من الغفلة، ولا يؤدّي دوره في مراقبة القوى، تغتنم هذه القوّة الفرصة وتبدأ في نسج الخيالات وصنع الصور. إنّ قوّة الخيال بما تؤدّيه من وظيفة حفظ الصور، والقوّة المتخيّلة بدورها في صناعة الصور يتفاعلان ويتكاملان فيما بينها؛ فالخيال يوفّر الموادّ الأوّلية للمتخيّلة، والمتخيّلة بدورها ترسل ما تصنعه من هذه الموادّ إلى الخيال ليتمّ أرشفته. يتجلّى أهمّ وظائف المتخيّلة في تركيب الصور المتفرّقة، وفصل الصور المتّصلة. ومن الباحثين الأوائل في مجال النفس، نجد ابن سينا قد أولى اهتمامًا خاصًّا بالخصائص الظاهراتية للمتخيّلة، وسعى إلى اقتراح حلول وأساليب جديدة للسيطرة عليها. وتتمثّل هذه الحلول في: إشراف العقل عليها ومراقبته لها، وإبعاد خزانة الخيال عن دائرة التناول، واستخدام العقل للمتخيّلة بشكل هادف ومنهجي، وتعزيز الجانب الروحي والسلوكي للنفس، وإصلاح المزاج وصحّة الجسم، وسدّ الاحتياجات الجسدية، والتعوّد على قول الحقّ واجتناب الكذب والخداع. وفي هذا البحث، تمّت دراسة الخصائص الظاهراتية للمتخيّلة اعتمادًا على المنهج العقلي ـ التحليلي، أوّلًا، ثمّ طرق إدارتها والسيطرة عليها، وكذلك الآثار والنتائج المترتّبة على الخيال المنفلت وذلك من منظور ابن سينا.

الكلمات المفتاحية: الخيال، المتخيّلة، ابن سينا، الإدارة، العقل، التحليل الظاهراتي.

مجلّة الدليل، 2026، السنة 9، العدد 31، ص. 39 ـ 59
الاستلام: 2026/01/07، القبول: 2026/02/15
الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث
© المؤلّف

المقدّمة

تنقسم قوى النفس الإنسانية بنحوٍ عامٍّ إلى قوًى إدراكية وقوًى محرّكة، والقوى الإدراكية بدورها تصنّف إلى فئتين: ظاهرية وباطنية، والقوى الإدراكية الظاهرية هي الحواسّ الظاهرية، أمّا القوى الباطنية عند الإنسان فهي: الحسّ المشترك، والخيال، والمتخيّلة، والوهم، والذاكرة. وقد ميّز ابن سينا بين الخيال والمتخيّلة، وأسند لكلٍّ منهما دورًا ووظيفةً خاصّةً، فجعل وظيفة الخيال الحفظ والصيانة، ووظيفة المتخيّلة التخيّل والتصوير.

ويمكن اعتبار القوّة المتخيّلة تجلّيًا لاسم "المصوّر"، وهو الحقّ ﷻ، فليس وظيفتها سوى التصوير والتشكيل. وإذا لم تتمّ إدارة هذه القوّة الفاعلة والنشطة بشكل صحيح، فربّما تُلحِق بروح الإنسان وجسده أضرارًا لا يمكن إصلاحها، وتشكّل عائقًا كبيرًا أمام تطوّره وتقدّمه. ومن ناحية أخرى، يرى ابن سينا أنّ سعادة النفس متوقّفة على سعادة قواها، ومعيار سعادة كلّ قوّة من تلك القوى يكمن في بلوغها كمالًا يناسب ذاتها. وعلى هذا الأساس، تكمن سعادة قوّة الخيال في تحقيق التخيّلات الحسنة: "تخيّل المستحسنات" [انظر: ابن سينا، المبدأ والمعاد، ص 109]. فإذا لم تتحقّق العدالة والاعتدال في إشباع قوى النفس، ولم تنل كلّ قوّة نصيبها الخاصّ تحت إشراف قوّة العقل، فسيحدث حينئذٍ فوضى وتمرّد بينها.

ومن ناحية أخرى، ما لم تُعرف طبيعة القوّة المتخيّلة ـ التي يمكن أن تكون مفيدةً ومضرّةً أيضًا ـ بشكل كامل، وتُبيّن وظائفها بشكل صحيح، فلن يمكن إدارتها وتوجيهها على الوجه الصحيح.

يعدّ ابن سينا من الفلاسفة الذين أولوا علم النفس اهتمامًا خاصًّا، وقد طرح نقاطًا دقيقةً ولطيفةً في وصف وظائف المتخيّلة وتحليلها، واقترح حلولًا وأساليب جديدةً لإدارة هذه القوّة وتنظيمها في إطار بيان منهجي. وتُظهر سابقة البحث أنّ الدراسات السابقة ركّزت أكثر على دور القوّة المتخيّلة في تلقّي الوحي ونقل الحقائق الغيبية من منظور ابن سينا. كما حظي دور الخيال في الرؤيا والمنام باهتمام بعض هذه الأبحاث أيضًا. لكنّ ما يميز هذا المقال عمّا سبقه من بحوث هو النظرة الظاهراتية[1] إلى المتخيّلة من وجهة نظر ابن سينا، ودراسة حلول وتقنيات ضبطها وإدارتها في نظريته، وتحليل العواقب والأضرار الناجمة عن الخيال المنفلت.

1- الظاهراتية (Phenomenalism)، أو التحليل الظاهراتي للأشياء (Phenomenological Analysis of Objects) هو منهج فلسفي يهدف إلى فهم طريقة ظهور الأشياء وتفسير اشتباكها مع وعينا وتجربتنا المباشرة، بدلًا من النظر إليها بوصفها كياناتٍ فيزيائيةً مجرّدة أو موضوعاتٍ علميةً منفصلةً عن الإنسان.

المبحث الأوّل: أثر الخيال في النشاط الإبداعي المتخيّل

يستخدم ابن سينا مصطلحين مختلفين لقوّة الخيال، أوّلهما: المصطلح الفلسفي "المصوّرة" الذي يُعرف بوصفه خزانةً للمحسوسات، وثانيهما: المصطلح الطبيعي "المصوّرة الطابعة" بمعنى المُشكّل أو المصوِّر الذي يعدّ من فروع القوّة المولّدة، وهي القوّة التي تقوم بالتصوير في مرحلة النطفة البشرية وتحوّلها إلى شكل الأعضاء والجوارح. [انظر: حسن زاده، عيون مسائل النفس، ص 471]

يقول ابن سينا: «المتخيّلة هي القوّة النفسانية التي تعرض الصور مرتبطةً بعضها ببعضها الآخر، بحيث ينتقل المرء من صورة إلى صورة أخرى شبيهة أو مضادّة» [ابن سينا، رسالة في النفس وبقائها ومعادها، ص 38].

تعدّ قوّة الخيال إحدى أهمّ القوى الباطنية للنفس وأكثرها إثمارًا؛ ولذلك تقع على عاتقها مهمّة خزن الصور الحسّية وصيانتها. وخزانة المحسوسات هذه لها وجهان:

الوجه الأوّل: أنّ لقوّة الخيال من ناحيةٍ توجّهًا نحو الحسّ المشترك، بمعنى أنّ الصور الحسّية تتجمّع في الحسّ المشترك وتتوقّف فيه برهةً وجيزةً، ثمّ تُنقل بواسطة الحسّ المشترك نفسه إلى خزانة الخيال للحفظ طويل الأمد. ومن هنا يتّضح الارتباط الوثيق بين الحسّ المشترك وقوّة الخيال، فمن ناحية يوفّر الحسّ المشترك الغذاء والزاد لقوّة الخيال، ليملأها من هذه الجهة لذّةً وكمالًا. ومن ناحية أخرى، تمنع قوّة الخيال ضياع نتائج الحسّ المشترك وتلاشي مكتسباته، بأن تقوم بحفظها وتخزينها داخلها لكي يتسنّى للحسّ المشترك الوصول إليها بسهولة متى أراد إدراك المحسوسات السابقة.

الوجه الثاني: أنّ لقوّة الخيال وجهًا آخر متّجهًا نحو القوّة المتصرّفة أو المتخيّلة، بمعنى أنّ كلّ ما يتمّ تصويره وتشكيله بواسطة القوّة المتخيّلة، يتمّ أرشفته وحفظه في قوّة الخيال أيضًا. والقوّة المتخيّلة بوصفها فاعلًا نشطًا وحيويًّا تمتلك وصولًا كاملًا إلى خزانة المحسوسات أي قوّة الخيال، فتأخذ من هناك الموادّ الخام والزاد اللازم لنفسها، وتشرع في التصوير والتخيّل، وفي النهاية تسلّم ما صنعته وأبدعته مرّةً أخرى إلى قوّة الخيال للحفظ. وعليه فإنّ قوّة الخيال تحتفظ في خزانتها بنوعين من المنتجات والمحصولات: أحدهما ما تتلقّاه مباشرةً من الخارج عبر الحسّ المشترك، والآخر ما يُصنع ويُبدع من الداخل بواسطة المتخيّلة.

وممّا تقدّم يتّضح أنّ هناك ارتباطًا وثيقًا بين قوّة الخيال والقوّة المتخيّلة بوصفهما قوّتين متماثلتين ومتجانستين، ولكن بنوعين مختلفين من الفاعلية والنشاط. فإنّ قوّة الخيال توفّر الموادّ

والعناصر اللازمة لتصوير القوّة المتخيّلة، وتلعب دور المساعد والخادم لها. ومن ناحية أخرى، تشبع القوّة المتخيّلة الخيال وترويه من خلال إرسال الصور الجديدة إلى أرشيفه. تجدر الإشارة إلى أنّ قوّة الخيال هي مكان حفظ الصور التي تتمتّع بنوع من التجرّد المثالي، سواء أتت هذه الصور من الخارج أم من الداخل. [انظر: ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 236]

والسؤال المهمّ هو: ما الدور الذي يمكن أن تلعبه قوّة الخيال ـ بالوجهين الذين تتمتّع بهما ـ في إدارة القوّة المتخيّلة وتنظيمها؟

ومن الواضح أنّ كثرة الموادّ الأوّلية المقدَّمة للمعالجة في المتخيّلة وتنوّعها تلعب دورًا كبيرًا في عصيانها وتمرّدها وطغيانها، تمامًا كأداء الذكاء الاصطناعي الذي كلّما توفّرت لديه بيانات كثيرة ومتنوّعة كان فاعليته ونشاطه أقوى وأكمل، ومن هنا فإنّ الذكاء الاصطناعي هو تقنية قائمة على البيانات المتوفّرة له والمعالجة التي يقوم بها. وعلى هذا المنوال، فإنّ قوّة المتخيّلة عند الإنسان أيضًا ذات هوية قائمة على البيانات والمعالجة، وإذا لم تتوفّر لها الصور الخيالية بوصفها موادّ وعناصر أساسيةً، فإنّها ستعجز عن صنع صور جديدة وإبداعها.

والنقطة الجديرة بالاهتمام هي أنّ خاصّية التصوير والتخيّل من السمات الغريزية في القوّة المتخيّلة، وأنّ ذات هذه القوّة وطبيعتها على نحو لا يهدأ ولا يسكن، وتسعى حثيثًا كالجائع الباحث عن الغذاء؛ ومن هنا يقول ابن سينا حول هذه الوظيفة للمتخيّلة: «القوّة المتخيّلة وخاصّتها دوام الحركة ما لم تُغلَب» [ابن سينا، عيون الحكمة، ص 39]. والتعبير بـ "ما لم تغلب" يشير إلى السيطرة على القوّة المتخيّلة وضبطها من قبل العاقلة. بمعنى أنّ حالة الهيجان والفاعلية المفرطة للقوّة المتخيّلة تتواصل ما لم تُهذب وتُقهر من قبل العاقلة، وأمّا لو خضعت للقوّة العاقلة، فإنّها تقوم بإصلاحها وتعديلها.

المبحث الثاني: تحليل أهمّ سمات القوّة المتخيّلة

يذكر الحكماء المسلمون عدّة خصائص وسمات للقوّة المتخيّلة، ومعرفة هذه الخصائص تلعب دورًا كبيرًا في كيفية إدارتها وضبطها، وسنقوم فيما يلي بدراسة هذه الخصائص:

أوّلًا: تركيب الصور الحسّية

إنّ أهمّ وظيفة ونشاط تؤدّيه القوّة المتخيّلة هو تركيب الصور الحسّية وفصلها عن بعضها البعض، ونسج وصناعة صور خيالية جديدة: «شأن المتخيّلة أن تركّب بعض ما في الخيال مع بعض وتفصل بعضه عن بعض، بحسب الإرادة» [ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 62]. والنقطة

المهمّة في هذا التعريف هي قيد "بحسب الإرادة"، فإنّ هذا القيد إنّما هو لإخراج الصور الخيالية غير الواقعية التي تظهر نتيجة لاضطراب قوّة الخيال، وتضرّر محلّها في الدماغ، فمثل هذه الصور الخيالية ليست من صنع القوّة المتخيّلة وإبداعها، بل هي نتيجة للاختلال والضرر اللاحق بقوّة الخيال، وتظهر دون اختيار وإرادة. [انظر: المصدر السابق، ص 231]

وإذا استفادت القوّة الواهمة من القوّة المتصرّفة وسخّرتها لتحقيق أهدافها، سُمّيت "متخيّلةً"، وإذا استخدمها العقل، أُطلق عليها "مفكّرة". وفي هذا يقول ابن سينا: «وهذه القوّة إذا استعملها العقل سمّيت مفكّرةً، وإذا استعملها الوهم سمّيت متخيّلةً» [ابن سينا، عيون الحكمة، ص 39].

ثانيًا: الديناميكية والحركة المستمرّة

يرى فلاسفة الإسلام أنّ القوّة المتخيّلة قوّة دينامية باحثة لا تهدأ ولا تسكن وتتنقل من مكان لآخر، وربّما يمكن القول إنّ المتخيّلة قوّة "مفرطة النشاط"، وتستعين هذه القوّة في إنجاز أعمالها وأنشطتها من الصور المحفوظة في خزانة الخيال. يستعمل ابن سينا كلمة "استعراض" للمتخيّلة، ويصف الخيال بأنّه: «المعنى الذي في الذكر (تحرّكت) على سبيل الانتقال والاستعراض الذي في طبيعة القوّة المتخيّلة» [ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 255].

ثالثًا: محاكاة أحوال البدن وأعراضه

ومن وظائف القوّة المتخيّلة وآثارها الأخرى أنّها تُبلغ عن احتياجات الجسم ومطالبه أثناء النوم وتعرّضها، فعلى سبيل المثال، الشخص الجائع في النوم تعرض قوّته المتخيّلة أطعمةً لذيذةً، فيرى نفسه يأكلها في المنام، ومثل ذلك ما لو كان الشخص أثناء النوم بحاجة إلى التخلّص من الفضلات، فإنّ القوّة المتخيّلة تصوّر له مكان ذلك. وكذلك، إذا أصيب الفرد بمرض أو حمّى شديدة في النوم، تحاكي المتخيّلة ذلك المرض الجسدي وتُبلغ عنه: «وقد تحكي أيضًا آلامًا تكون في البدن وأعراضًا فيه، مثل ما يكون عندما تتحرّك القوة الدافعة للمنيّ إلى الدفع، فإنّ المتخيّلة حينئذٍ تحاكي صورًا من شأن النفس أن تميل إلى مجامعتها، ومن كان له جوعٌ حُكي له مأكولات، ومن كان به حاجة إلى دفع فضلٍ حُكي له موضع ذلك» [المصدر السابق، ص 247].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الإبلاغ والعرض للاحتياجات الجسدية الذي تقوم به المتخيّلة لا يختصّ بحالة النوم، بل يعمّ حالة اليقظة أيضًا فيما لو تعرّض الجسم لعارض أو حاجة شديدة، فتبدأ القوّة المتخيّلة حينئذٍ في التخيّل والتصوير لإجبار النفس على قضاء حاجة الجسم.

رابعًا: إمكانية التصرّف في الصور المخزونة في الخيال

من الخصائص الظاهراتية الأخرى للقوّة المتخيّلة، هي الوصول الحرّ إلى خزانة الصورة والمعنى، أي الخيال والذاكرة. وتمنح هذه الخاصّية القوّة المتخيّلة وظيفةً مهمّةً تسمّى "تداعي المعاني". وعلى الرغم من أنّ الاشتراط الكلاسيكي (Conditioning) عند العالم الروسي بافلوف (Ivan Petrovich Pavlov) مشهورة جدًّا في علم النفس، إلّا أنّه يمكن القول إنّ ابن سينا أوّل من كشف النقاب عن هذه الحقيقة لأوّل مرّة، وطرحها في عدّة مواضع من كتاب "النفس من كتاب الشفاء" [انظر: المصدر السابق، ص 232 و233؛ ص 242؛ ص 255]. فإنّه كان يعتقد أنّ قوّة الوهم تستخدم أحيانًا القوّة المتخيّلة لمراجعة الصور المحفوظة في الخيال أو المعاني المتراكمة في الذاكرة، وعبر هذا الطريق، تتذكّر الأمور التي نسيتها، ونتيجة مراجعة المتخيّلة لهذه الصور والمعاني وإعادة النظر فيها، تنتقل أحيانًا من صورة إلى أخرى، وأحيانًا من معنًى إلى آخر، وأحيانًا من صورة إلى معنًى أو من معنًى إلى صورة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ إحدى الخصائص الطبيعية للقوّة المتخيّلة هي القفز والوثوب من خيال إلى آخر، وربّما يمكن تسميتها "قفز الخيال ووثوبه". وإذا لم يهذّب الإنسان خيالَه ليكون منضبطًا ومعياريًّا، فإنّ هذه القفزات والوثبات الخيالية يمكن أن تلحق به أضرارًا لا يمكن إصلاحها. ويرى الباحثون في مجال النفس أنّ التخيّل قد يهيمن أحيانًا على الإنسان ويسيطر عليه، ويأخذ بزمامه ويقوده إلى أماكن بعيدة. وفي هذه الحالة، إذا أراد العودة إلى العمل الأساسي الذي كان مشغولًا به في البداية، فلا بدّ له من فكّ العقد واحدةً تلو الأخرى، ككرة الخيوط الملتفّة على نفسها، والعودة خطوةً بخطوة إلى الوراء للوصول إلى النقطة التي بدأ منها. [انظر: المصدر السابق، ص 242]

خامسًا: تلقّي الحقائق الغيبية والمغيّبات الملكوتية

إنّ تلقّي الحقائق الغيبية والمغيبات الملكوتية هو من وظائف القوّة المتخيّلة من منظور علم النفس الإسلامي. ويعتقد ابن سينا أنّ بعض الأفراد تكون القوّة المتخيّلة عندهم بمستوًى من القوّة والشدّة، بحيث إنّ قدرة العقل على الاستفادة من الحواسّ والخيال لا تمنع من هيمنة المتخيّلة وتفوّقها، وهؤلاء الأفراد يمتلكون نفوسًا قويّةً وكاملةً لا تمنعهم معالجة الأمور العقلية من التخيّل. ويتمتّع هؤلاء الأفراد الخاصّون بقوّة خيال قويّة تتلقّى صورًا من عالم الغيب؛ ولذلك يُخبرون عن وقائع ستتحقّق في المستقبل. وتنبع هذه الأخبار الغيبية من مصدر أعلى من أنفسهم، وتتلقّاها المتخيّلة عندهم، ثمّ تُلبسها رداء التخيّل والتمثّل، وبعبارة ابن سينا، تحاكيها وتُبلغ عنها «القوّة

المتخيّلة وخاصّتها دوام الحركة ما لم تُغلَب، وحركتها محاكيات الأشياء بأشباهها وأضدادها: فتارةً تحاكي المزاج كمن تغلب عليه السوداء فتخيّل له صورًا سوداء، ومحاكاة أذكار سبقت، ومحاكاة أفكار رجيّت» [ابن سينا، عيون الحكمة، ص 39].

وبعبارة أخرى، إنّ قوّة الخيال بعد أن تُعرض عليها الصورة الحقيقية الغيبية، تبدأ في الحكاية عنها ومحاكاتها؛ لأنّ وظيفة الخيال هي الحكاية والتصوير. ومن هنا، تحوّل الصور الحقيقية إلى صورة خيالية أخرى؛ ولهذا السبب لا تُرى تلك الصورة الأصلية والحقيقية بشكلٍ صافٍ ونقيٍّ. في الواقع، إنّ الخيال يُلبس تلك الصورة الحقيقية رداءً جديدًا، والنفس بدلًا من رؤية الصورة المحكيّة، ترى الصورة الحاكية. وإذا حدث هذا في المنام والرؤيا، يُقال إنّ هذا الحلم يحتاج إلى تعبير، ويجب على من يقوم بتعبير الرؤيا وتفسيرها أن يزيل ـ في ضوء ما يملكه من وعي وخبرة ـ هذا الغطاء الخيالي للحلم ليصل إلى الصورة الحقيقية والنقيّة. وبالطبع ليس المقصود أنّ هؤلاء الأفراد الذين يتمتّعون بنفوس قويّة يرون جميع الحقائق الغيبية وراء غطاء التخيّلات والتمثّلات. [انظر: ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 240]

بل يؤكّد ابن سينا أنّ النفس الإنسانية تتلقّى أوّلًا الحقائق الغيبية بشكل كلّي ومجمل من العقل الفعّال، ثمّ تفيضها على المتخيّلة التي تدركها بشكل مفصّل ومصحوبة بالألفاظ: «يفيض عليها (النفس) العقل الفعّال ذلك المعنى كلّيًّا غير مفصّل ولا منظّم دفعةً واحدةً، ثمّ يفيض عن النفس إلى القوّة الخيالية، فتتخيّله مفصّلًا منظّمًا بعبارة مسموعة منظومة، ويشبه أن يكون الوحي على هذا الوجه» [ابن سينا، التعليقات، ص 82].

سادسًا: تأثّر المتخيّلة من القوّة الناطقة

يؤكّد علماء علم النفس أنّ تخيّل الإنسان أقوى وأكثر نشاطًا من تخيّل الحيوانات؛ لأنّ نور العقل قد أشرق على ذلك التخيّل فجعله منيرًا ولامعًا وقويًّا؛ ومن هنا يكتب الإنسان نتائج تخيّلاته كتجارب ثمينة في الكتب لتستفيد منها الأجيال الآتية. وبعبارة أخرى، تخيّل الإنسان هو تخيّل عقلي، لكنّ تخيّل الحيوان هو تخيّل وهمي، وبما أنّ تخيّل الإنسان يعدّ من قوى النفس الناطقة الإنسانية وجنودها، فإنّ طبيعة هذا التخيّل تتمتّع بهوية إنسانية؛ ولهذا السبب أحد منابع الإبداع والابتكار عند الإنسان هي قوّته المتخيّلة التي تتمتّع بقدرة خارقة على خلق أنواع التخيّلات والتصويرات، وتظهر في مختلف أنواع الصناعات، والفنون، والعمارة. يقول ابن سينا في هذا الشأن: «وإن كان الإنسان قد يعرض لحواسّه وقواه بسبب مجاورة النطق ما يكاد أن تصير قواه

الباطنة نطقيةً مخالفةً للبهائم...؛ لأنّ نور النطق كأنّه فائض سائح على هذه القوى. وهذا التخيّل أيضًا الذي للإنسان قد صار موضوعًا للنطق بعد ما أنّه موضوع للوهم في الحيوانات، حتّى أنّه ينتفع به في العلوم، وصار ذكره أيضًا نافعًا في العلوم كالتجارب التي تحصل بالذكر والأرصاد الجزئية وغير ذلك» [ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 252 و253].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ هذه العبارة يذكر فيها ابن سينا مرّةً تمييز تخيّل الإنسان عن تخيّل الحيوانات والبهائم بتعبير "مجاورة النطق"، أي أنّ تخيّل الإنسان يختلف عن متخيّلة الحيوان؛ بسبب مجاورة العقل له، ومرّةً أخرى يقول: "لأنّ نور النطق كأنّه فائض سائح على هذه القوى" أي أنّ نور العقل مشرق على التخيّل، وفي هذين التعبيرين يقترب مبنى ابن سينا من مبنى صدر الدين الشيرازي الذي يرى أنّ النفس رغم وحدتها، تتمتّع بمراتب ودرجات مختلفة، وأنّ النفس نفسها تتأرجح فيما بين مراتبها صعودًا وهبوطًا، فإنّها في مرتبة تتعقّل، وفي مرتبة أدنى تتخيّل. [انظر: الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج 7، ص 165]

سابعًا: جسمانية القوّة المتخيّلة

إنّ إحدى الخصائص الوجودية للتخيّل والخيال من منظور ابن سينا، هي كونهما جسمانيين ومادّيين. ومن هنا، يرى مكان القوّة المتخيّلة في الدماغ إذ يقول: «وهي (المتخيّلة) قوّة مرتّبة في التجويف الأوسط من الدماغ عند الدودة» [انظر: ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 62] أي عند العضو الشبيه بالدودة. وعلى الرغم من أنّ ابن سينا يعتقد بنوع من الثنائية الجوهرية في العلاقة بين النفس الناطقة والجسد، إلّا أنّه فيما يرتبط بالقوى الباطنية الحيوانية مثل الحسّ المشترك، والخيال، والتخيّل، والوهم، يراها جميعًا مادّيةً وجسمانيةً، ويقدّم أدلّةً مختلفةً على مادّية الخيال والمتخيّلة. [انظر: ابن سينا، رساله‌ی نفس، ص 28]

تجدر الإشارة إلى أنّ القول بجسمانية الخيال والمتخيّلة ومادّيتهما، لا يتوافق مع آراء ابن سينا حول الأحلام الصادقة وتلقّي الحقائق الغيبية بواسطة المتخيّلة. كما يرى ابن سينا أنّ القوّة المتخيّلة تجرّد الصور الخيالية بشكل نصف تجريدي [انظر: ابن سينا، رسائل ابن سينا، ص 122]، بينما هذا الادّعاء أيضًا غير متوافق مع مادّية الخيال والمتخيّلة.

يقسّم ابن سينا خصائص النفس وحالاتها التي تتمّ بمشاركة البدن إلى ثلاثة أقسام:

أ ـ الحالات والعوارض التي هي بالذات خصّيصة للنفس، لكنّها تبلغ الفعلية بشرط تعلّق النفس بالبدن، وهذه العوارض والحالات لا تُعطى للنفس بواسطة البدن، بل هي من النفس

ذاتها، مثل التخيّل الذي هو من النفس ذاتها، لكنّه يظهر ويبرز بشرط تعلّق النفس بالبدن، ويدخل ضمن هذه الفئة التخيّل، والشهوة، والغضب، والغمّ والحزن والأسى، والخوف، والتذكّر.

ب ـ العوارض والحالات التي هي للبدن بالذات، وتسري إلى النفس أيضًا بواسطة البدن، مثل النوم، واليقظة، والصحّة، والمرض.

جـ ـ العوارض والحالات التي ليست للنفس ولا للبدن بالذات، وإنّما نسبتها إليهما على السواء، مثل الألم الذي يشعر فيه البدن بتفرّق الاتّصال، وتقطّع النسيج الجسدي، كما يوجد في الحسّ الذي يحسّه من جهةٍ ما؛ لأنّ الحسّ قوّة من قوى النفس. [انظر: ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 271]

وهنا توجد ملاحظة في غاية الأهمّية وهي أنّ التخيّل في الأصل خصيصة نفسانية، ويسري بواسطة النفس إلى البدن، وتترتّب على هذه الملاحظة آثار ونتائج خاصّة، منها أنّه عند تخيّل أمر لذيذ ومحبوب، تستمتع النفس بذلك، وإذا حصل البدن على نوع من اللذّة، فإنّها ببركة النفس، «وأمّا التخيّل والشهوة والغضب وما يجري هذا المجرى، فإنّها للنفس من جهة ما هي ذات بدن، وللبدن من جهة أنّها لنفس البدن أوّلًا» [المصدر السابق، ص 271].

تاسعًا: ارتباط المتخيّلة بالقوّة النزوعية الشوقية

من النقاط الجديرة بالذكر في ظاهراتية المتخيّلة هو الارتباط والصلة بين التخيّل والقوّة النزوعية الشوقية؛ إذ تنقسم قوى النفس الحيوانية وفقًا لتقسيم أوّلي إلى قوًى إدراكية وقوًى محرّكة، وتنقسم القوى المحرّكة الحيوانية إلى نوعين "الباعثة" و"الفاعلة"، والقوّة الباعثة التي وظيفتها الإثارة والتحفيز والتحريك تسمّى أيضًا "النزوعية الشوقية". [انظر: المصدر السابق، 57]

يعتقد ابن سينا أنّه إذا ارتسمت صورة مرغوبة ومحبوبة في تخيّل الإنسان، فإنّ القوّة الباعثة التي لها وظيفة تحفيزية وحركية، ولها شعبتان الشهوة والغضب، تحفّز قوى النفس الفاعلة لإشباع مراده ومحبوبه، وهذا العمل من أجل الحصول على اللذّة الخيالية، كما أنّه للتغلّب والسيطرة على شيء تراه المتخيّلة ضارًّا ومهلكًا تُثار القوّة الغضبية؛ ومن هنا يبيّن ابن سينا الصلة بين الشهوة والغضب من ناحية، والتخيّل من ناحية أخرى قائلًا: «وهذه القوّة الشوقية من شعبها القوّة الغضبية والقوّة الشهوية، فالتي تنبعث مشتاقةً إلى اللذيذ والمتخيّل نافعًا لتجلبه هي الشهوانية، والتي تنبعث مشتاقةً إلى الغلبة وإلى المتخيّل منافيًا لتدفعه فهي الغضبية» [المصدر السابق، ص 268].

والنقطة الجوهرية في المقام هي أنّ كلّ قوّة إدراكية تنعم بلذّة خاصّة بما تدركه؛ لأنّها بلغت من القوّة إلى الفعلية، ونالت كمالًا باعثًا على اللذّة، وهذه اللذّة ممتعةٌ ومطلوبةٌ لتلك القوّة الإدراكية، إلى درجة أنّه إذا لم تتذوّقها لفترة فإنّها تتألّم وتتأذّى، وكأنّها قد أصبحت مدمنةً عليها ومتعلّقةً بها، ومن هنا ترغب دائمًا في الوصول إليها مرّةً أخرى؛ ولذلك تثير إرادتها وعزمها لاستخدام القوى المحرّكة من أجل تجربة تلك اللذّة مرّةً أخرى. وهذه اللذّة التي تنالها القوّة المتخيّلة من تخيّلاتها، والشوق الذي يحصل لها عقب كلّ تخيلٍ هي من قبيل الشوق الذي يحصل للإنسان لإشباع شهوة، أو إطفاء غضب. [المصدر السابق، ص 269]

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ اللذّة من منظور ابن سينا هي إدراك الأمور الملائمة لطبع الإنسان، ولهذه اللذّة صلةً وثيقة بالتخيّل، ومن الأمور التي حظيت باهتمام ابن سينا أيضًا هو مشاركة الخيال والتخيّل في اشتداد اللذّة. [ابن سينا، الأضحوية في المعاد، ص 147]

المبحث الثالث: أساليب إدارة المتخيّلة وضبطها

يقترح ابن سينا حلولًا لضبط القوّة المتخيّلة الجامحة وإدارتها، وهي ما يلي:

أوّلًا: سيطرة القوّة العاقلة على المتخيّلة

لا تمارس المتخيّلة الفاعلية والنشاط إلّا عندما يغفل عقل الإنسان عنها ولا يراقبها، وعدم مراقبة العقل للخيال وتساهله في الإشراف عليه يوفّر الفرصة والبيئة لجموح الخيال: «وأكثر ما يعرض هذا (التخيّل) عند سكون القوى العقلية أو غفول الوهم، وعند اشتغال النفس النطقية عن مراعاة الخيال والوهم، فهناك تقوى المصوّرة والمتخيّلة على أفعالها الخاصّة» [ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 236]. وبالتالي فإنّ القوّة المتخيّلة أحيانًا تقع تحت تدبير النفس، وأحيانًا لا تستطيع النفس تدبيرها ومراقبتها، وفي الحالة الأولى يتمّ إنجاز أعمال المتخيّلة وفق رأي النفس، لكن في الحالة الثانية التي تكون فيها المتخيّلة خارج تدبير النفس ومراقبتها، وتبدأ في نسج صور خيالية، وتسلّم تلك الصور المنسوجة إلى الخيال، وبعد ذلك تذهب هذه الصور إلى الحسّ المشترك ليراها. وبعبارة أخرى هناك مبدأ كلّي، وهو أنّه إذا تنحّت نفس الإنسان الناطقة جانبًا، واعتزلت ولم تتولّ مسؤولية مراقبة القوى والاهتمام بها، ففي هذه الحالة فإنّ تلك القوّة ـ التي هي الأكثر عصيانًا وطغيانًا ـ ترى المجال مفتوحًا أمامها، فتسيطر على النفس، وتصبح هي القائد والمسيطر الوحيد في الميدان، وهذه القوّة المتمرّدة هي المتخيّلة التي تستغلّ غفلة العقل وعدم قيامه بدوره في المراقبة والإشراف، لتبدأ بالجموح. [انظر: المصدر السابق، ص 237]

والسؤال المهمّ الذي ينبغي طرحه هنا هو: في أيّ صورة تتنحّى النفس، وتغفل عن مراقبة قواها ورعايتها؟

ويجيب ابن سينا على هذا السؤال المهمّ بذكر عدّة عوامل لغفلة العاقلة:

أ ـ إذا انشغلت النفس بعمل، فإنّها تعجز عن الاشتغال بآخر؛ وذلك بسبب ضعفها الوجودي، وفي هذه الحالة لم تنسحب النفس بالكامل، وإنّما هي تستفيد من بعض القوى وتصرف همّتها لها؛ ولهذا السبب انصرفت عن الانتباه والتركيز على القوى الأخرى مثل المتخيّلة وتركتها بلا رقابة، وفي هذه الظروف ترى القوّة المتخيّلة نفسها حرّةً من قيد مراقبة العقل، فتبدأ بالتخيّل.

ب ـ في حالة المرض والآلام الجسدية، تنشغل النفس بالعناية بالبدن؛ ولذا تنصرف عن مراقبة المتخيّلة وضبطها.

جـ ـ في حالة الخوف والفزع الشديد أيضًا ينفعل العقل ولا يستطيع الإشراف على المتخيّلة ومراقبتها.

د ـ في حالة الاستراحة والنوم أيضًا تتحرّر المتخيّلة من قيد مراقبة العقل وسيطرته، وتبدأ في التخيّل والتصوير.

وفي هذه الحالات تشتدّ قوّة المتخيلة وتتّجه إلى قوّة الخيال، ويؤدّي اجتماع الخيال والمتخيّلة وتحالفهما إلى تركيز الخيال بشدّة، فتظهر نتيجةً لذلك الصور الخيالية بشكل واضح وجلي وكأنّ الشخص يراها بأمّ عينه. [انظر: المصدر السابق، ص137 و239]

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ نفس الإنسان وقوّته العاقلة لا تعمل في حالات النوم والمرض والخوف والانشغال بقوّة خاصّة، وواقع الأمر أنّه حينما ترى المتخيّلة المشرف عليها ومراقبها غافلًا عنها تبدأ في النشاط، وبالتالي أفضل طريقة لضبط التخيل من منظور ابن سينا هي اليقظة والوعي وتقوية العقل، فبمجرّد أن يضعف العقل أو يُعزل، تجلس القوّة الوهمية الحيوانية على مسند القدرة وتستخدم المتخيّلة، والمتخيّلة التي بطبعها وطبيعتها تعشق التخيّل والنسج، تبدأ بالنشاط؛ ونتيجة لذلك تلحق أضرارًا كثيرةً بنموّ الإنسان الفكري والروحي وحتّى الجسدي.

ثانيًا: إخراج قوّة الخيال عن دائرة تناول القوّة المتخيّلة

من الأمور الأخرى التي يطرحها ابن سينا لضبط المتخيّلة والسيطرة عليها هو ضرورة إخراج قوّة الخيال ـ بوصفها محلًّا وخزانةً لحفظ الصور الحسّية ـ عن دائرة تناول القوّة المتخيّلة، وبعبارة

أخـرى إنّ المتخيّلـة تأخـذ موادّهـا الأوّلية التي تسـتخدمها في التصوير والتشـكيل مـن خزانة الخيال، ثـمّ تعيـد الصـور الـتي تصنعهـا إلى نفـس الخزانـة للحفـظ، وحينئـذٍ إذا بـادرت النفس وجعلـت قوّة الخيـال هـذه في خدمـة أعمالها، وقضـاء احتياجاتها، فـهي في الواقع أخـذت المعين والناصر والمسـاعد مـن المتخيّلـة ولن تسـتطيع المتخيّلـة أن تكـون فاعلةً. وحينئـذٍ ينبغي طـرح هذا السـؤال وهو: كيف تسـتطيع النفـس أن تُخـرج قـوّة الخيـال مـن سـيطرة المتخيّلة وتجعلهـا في خدمتهـا؟ وفي مقـام الجواب يـرى ابن سـينا أنّـه إذا وجهت النفـس انتباهها كلّـه إلى الحواسّ الظاهرة، ودرسـت المدخلات الحسّـية بدقّـة، فـفي هـذه الحالة تقع قـوّة الخيال التي هي خزانة المحسوسـات ومسـتودعها تحت سـيطرة النفس بالكامـل وتمتلـئ بالمحسوسـات الظاهريـة. وفي هـذه الظـروف، لا تمتنـع قـوّة الخيال عن الاستسـلام للقـوّة المتخيّلـة فحسـب، بل تضع نفسـها في خدمة النفـس. ولن تكون القـوّة المتخيّلـة في هذه الحالة قـادرةً على صنـع أو معالجـة الصـور الخيالية، كما أنّ الحسّ المشـترك يكـون أيضًا في قبضـة النفس ولا يطيـع القـوّة المتخيّلـة. ونتيجـة لذلك لن تكـون القـوّة المتخيّلة لا معينًـا ولا ناصرًا للتصويـر؛ لأنّ قوّة الخيـال والحـسّ المشـترك كلاهما في خدمـة النفس. [انظر: المصدر السابق، ص 238]

هـذا الحـلّ الذي يقدّمـه ابـن سـينا يرجـع في الواقع إلى نـفي بطالـة النفـس وعطالتهـا، إذا لم تكن نفـس الإنسـان مشـغولةً بعمل ونشـاط مفيد وبناء، فـإنّ قوى الإنسـان الباطنية تبقى معطّلـةً، والقوّة المتخيّلـة الـتي هي غير مسـتقرّة وفعّالـة بطبعها تغتنم هـذه الفرصة، وتبـدأ بالتخيّل والنسـج، وتعيق تركـيز الإنسـان وانتباهـه، فيجـد الإنسـان صعوبـةً في التركـيز في الموضـع الذي يحتاج فيه إليـه لإنجاز أعمـاله المهمّة.

ثالثًا: الاستخدام المنضبط والهادف للمتخيّلة

الحـلّ الآخـر هـو أن تسـتخدم النفس القـوّة المتخيّلة بشـكل مخطّـط له ومنضبـط في خدمـة أهدافها، بحيـث تكـون للنفـس مجاهيـل تريـد تحويلهـا إلى معلومـات عـن طريـق التفكـير، وللوصـول إلى هـذا الهـدف تسـتخدم النفـس المتخيّلـة لتوفـير المقدّمـات والصغريـات والكبريـات لتتمكن من الوصـول إلى مطلوبهـا، وفي هـذا يقـول ابـن سـينا: «وتارةً عنـد اسـتعمال النفس إيّاهـا في أفعالهـا التي تتّصـل بها من التمـيّز والفكـرة بـأن تسـتولي على المتخيّلة فتسـتخدمها والحسَّ المشـترك معهـا في تركيب صـور بأعيانها وتحليلهـا على جهـة يقـع للنفس فيها غـرض صحيـح، ولا تتمكن المتخيّلـة لذلك من التـصرّف على ما لها أن تتـصرّف عليـه بطباعها، بـل تكون منجرّةً مـع تصريف النفس النطقيـة إيّاها انجـرارًا» [المصدر السابق].

وفي الواقع إنّ النفس والعقل الإنساني ينظمان المتخيّلة في برنامج هادف، ويُجنّدانها بشكل منهجي للوصول إلى أهدافهما، ويمنعانها من أن تُهدر طاقتها عبثًا وباطلًا. يمكن ملاحظة نموذجٍ بارزٍ لهذا الاستخدام الهادف للمتخيّلة في فنون الصناعات اليدوية، وهندسة البناء، وصناعة الأفلام الخيالية الهادفة، وتأليف الموسيقى، وتخطيط المدن وعمرانها، في تأليف رواية خيالية جميلة مفيدة. ومن هنا يُعلَم أنّه كما للمتخيّلة العاصية والمتمرّدة آثار مخرّبة ومدمّرة، فإنّ المتخيّلة المنضبطة والطائعة للعقل إذا أُديرت وقُيّدت بشكل جيّد يمكن أن تكون مظهرًا لأحد الأسماء الإلهية الحُسنى وهو الخلّاق، فتلعب دورًا مؤثّرًا، لا سيّما في الإبداع والابتكار في المجالات الفكرية والثقافية والفنّية والصناعية المختلفة.

رابعًا: الانشغال بالأمور الروحية وصرف الذهن التصوّرات الباطلة

الحلّ الآخر هو أنّ النفس تريد أحيانًا من الناحية العملية والسلوكية الوصول إلى الرقيّ والكمال والنموّ الروحي، ومن هنا يجب أن تهدأ وتسكن هذه المتخيّلة؛ لأنّ التصوير والتخيّل يشغل النفس بالصور الباطلة، والانشغال بهذه الصور يحرمها من إدراك الحقائق ومشاهدتها، فلا تصل إلى كمالها المطلوب. [انظر: المصدر السابق]

فتعزيز الأمور المعنوية، والتوجّه إلى منبع القدرة والكمال والجمال ـ أي الحقّ ﷻ ـ تعدّ من الطرق والأساليب الأخرى للسيطرة على المتخيّلة وضبطها؛ لأنّ التخيّلات الوهمية والباطلة كالقيود والسلاسل تمنع النفس من التحليق إلى الملكوت، فإذا استطاعت النفس تقوية التوجّه الروحي والمعنوي في ذاتها، فإنّها تستطيع بالتدريج أن تُلجم هذا الخيال العاصي المتمرّد وتسيطر عليه. ومن العوامل المهمّة في تركيز النفس هو تعزيز الحالة الروحانية لديها، ومنع تشتّت التخيّل ومنع الفوضى التي تعتريه. [انظر: المصدر السابق، ص 243]

سادسًا: سلامة البدن واعتدال المزاج

من الأمور الأخرى التي تشغل القوّة المتخيّلة هي أنْ يُصاب جسم الإنسان بعارض أو قصور، أو اختلال في المزاج، والمرض الجسدي أو اختلال الاعتدال المزاجي يجبر المتخيّلة على الحكاية والإبلاغ عن ذلك القصور والألم والمعاناة. [انظر: ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 247]

وفي المقابل، فإنّ الأفراد الذين يتمتّعون ببدن سليم قويّ، ولديهم اعتدالٌ نسبيٌّ في المزاج، يكون خيالهم وتخيّلهم في مأمنٍ من جهة البدن والاحتياجات والآلام الجسدية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ ابن سينا يذكر عدّة فئات من الناس الذين لديهم قوّة متخيّلة قويّة ونشطة؛ ولذلك فإنّ رؤيا هؤلاء ومناماتهم تكون غالبًا غير صادقة ولا مطابقة للواقع. يقول ابن سينا: «فلذلك لا يصحّ في الأكثر رؤيا الشاعر والكذاب والشرّير والسكران والمريض والمغموم ومن غلب عليه سوء مزاج أو فكر» [المصدر السابق، ص 248]. وأفراد هذه المجموعات المتعدّدة يصعب عليهم ضبط خيالهم والسيطرة عليه؛ لأنّ البيئة والأرضية للتخيّل والتصوّر مهيّأة لديهم بقوّة. ويرى ابن سينا أنّ وقت السحر هو أفضل وقت تصحّ فيه الرؤيا: «ولذلك أيضًا إنّما يصحّ من الرؤيا في أكثر الأمر ما كان في وقت السحر؛ لأنّ الخواطر كلّها تكون في هذا الوقت ساكنةً...، وإذا كانت القوّة المتخيّلة في حال النوم في مثل هذا الوقت غير مشغولة بالبدن ولا مقطوعة عن الحافظة والمصوّرة، بل متمكّنة منهما» [المصدر السابق، ص 248 - 249]. ونتيجةً لذلك تجد النفس الاستعداد للاتّصال بالمبادئ العالية وعالم الغيب لتستقي حقائق منه.

سابعًا: ترك الكذب والأفكار الفاسدة

أحد العوامل التي تسبّب فساد قوّة الخيال وضياعها هو التعوّد على الكذب، والأفكار الفاسدة، وربّما تصل هذه التصوّرات والتخيّلات الفاسدة والقبيحة إلى حدّ أنّ النفس تنفر من اتّباع أوامر العقل الرصينة المحكمة، وتصاب بالقلق والاضطراب الذهني: «فانّ عادة الكذب والأفكار الفاسدة تجعل الخيال رديء الحركات غير مطاوع لتسديد النطق، بل يكون حاله حال خيالٍ من فسد مزاجه إلى تشويش» [المصدر السابق، ص 249].

ومن هنا يلعب دور التربية الأخلاقية وتزكية النفس دورًا مهمًّا جدًّا في السيطرة على قوّة الخيال والمتخيّلة وإصلاحهما، فإنّ الإنسان الذي يشعر بالحقارة والصغر في ذاته ويفتقر إلى عزّة النفس وكرامتها، يقوم من أجل تعويض النقص الشخصي بعمل تخيّلات فاسدة وقبيحة. ويُرجع ابن سينا منشأ الرذائل الأخلاقية ومصدرها إلى استيلاء الشهوة والغضب وسيطرتهما على العقل العملي، وهو العقل الذي يأمر بالخير والصلاح بمشورة وصلاحية العقل النظري، ولا يجب أن يكون منفعلًا ومتأثّرًا بالشهوة والغضب، وإلّا ستتشكّل فيه هيئة انقيادية، وتصل فيه الرذائل والصفات الأخلاقية القبيحة إلى مستوى الفعلية. [انظر: ابن سينا، النجاة، ص 164].

وأمّا الأفراد الذين لم تروَّض وتُضبط قوّة الشهوة والغضب لديهم، ولم تقع تحت سيطرة العقل العملي، فإنّهم يتّصفون بالرذائل الأخلاقية. في مقابل هؤلاء نجد الأفراد الذين يتمتّعون بالصحّة النفسية وغنى الشخصية يتّصفون بتخيّل هادئ ومضبوط. ومن هنا يقول بعض أهل المعرفة

حـول ضرورة تنقيـة النفـس مـن التخيّـلات الفاسـدة: «وانتبـه إلى أنّ الخيـالات الفاسـدة والقبيحـة والتصـوّرات الباطلـة هي مـن إلقـاءات الشـيطان، الذي يريـد أن يوطّـن جنـوده في مملكـة باطنـك، فعليـك أيّهـا المجاهـد ضـدّ الشـيطان وجنـوده، وأنـت تريـد أن تجعل مـن صفحة نفسـك مملكـةً إلهيةً رحمانيـةً، عليـك أن تحـذر كيـد هذا اللعـين، وأن تبعـد عنك هـذه الأوهـام المخالفة لرضـا الله تعالى؛ حـتّى تنـتزع إن شـاء الله هـذا المـتراس المهمّ جـدًّا من يد الشـيطان وجنـوده في هـذه المعركـة الداخلية، فهـذا المـتراس بمنزلـة الحدّ الفاصل، فـإذا تغلّبت هنا فتأمّل خـيرًا» [الموسـوي الخميني، الأربعـون حديثًـا، ص 46].

المبحث الرابع: التداعيات المترتّبة على ضبط القوّة المتخيّلة

يُثمر التخيّل المهذّب والمنضبط داخل الإنسان آثارًا مفيدةً، وفيما يلي الإشارة إلى بعضها:

أوّلًا: ضبط الانفعالات والعواطف الناشئة عن القوّة الواهمة

مـن المباحـث الـتي يجب أن تحظـى باهتمام كبـير في إدارة القـوّة المتخيّلة هـو الارتباط بـين المتخيّلة والقـوّة الواهمـة، فـإن الواهمـة هي الحاكمـة المطلقـة في النفـس الحيوانيـة، ومـن هنـا تسـيطر وتتفوّق على القـوى التابعـة لهـا مثـل المتخيّلـة، والخيـال، والحـواسّ الظاهـرة، وتسـتخدمها في تحقيـق أهدافها وطلباتهـا. وأهـمّ عمل للواهمة هـو إدراك "المعاني الجزئية" مثـل العداوة، والصداقـة، والموافقة والمخالفة.

إنّ الخيـال والمتخيّلـة يؤدّيـان مـن ناحيـة إلى إثـارة الوهـم وإشـعاله، وينفخـان في شـعلة الحـبّ أو البغـض تجـاه شيءٍ مـا. فعلى سـبيل المثال، تـرى عين أحد الأشـخاص مشـهدًا غير مرغـوب، وتعاملًا سـيّئا مـن شـخص آخـر، فيـدرك الوهـم معـنى العـداوة والكراهيـة منـه. ويتـمّ تسـجيل صـورة هـذا التعامـل القبيـح وأرشـفته في قـوّة الخيـال والذاكـرة مـع المعـنى المرتبـط بـه، أي العـداوة والضغينـة. وبعـد مـرور عدّة أشـهر تسـتخرج القـوّة المتخيّلة مـرّةً أخرى صـورة ذلك المشـهد الكريه مـن خزانة الخيـال وتتخيّلـه، وعقيـب هـذا التخيّل يُبعـث من جديـد ذلك المعنى الجـزئي أي البغـض والغضب، وتُثـار مشـاعر العـداوة والضغينـة تجـاه ذلـك الشـخص. وبالتـالي عندمـا ظهرت صـورة ذلك المشـهد والتعامـل القبيـح في الذهـن كانـت مصحوبـةً بهيجـان الكراهيـة وانفعالهـا، والآن أيضًـا بعـد مـرور سـنين مديـدة إذا تُخيّلـت تلـك الصـورة مـرّةً أخرى فسـتكون مصحوبـةً بذلـك الهيجـان والكراهية.

[ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 257]

تلعب قوّة الخيال والمتخيّلة دورًا تحفيزيًّا تجاه الوهم، ومن هنا يصرّح ابن سينا بأنّ الأحكام التي يصدرها الوهم تكون على أساس التخيّل وإثارته: «إنّ الوهم هو الحاكم الأكبر في الحيوان، ويحكم على سبيل انبعاث تخيّلي» [المصدر السابق، ص 254]. ويُبيّن في مكان آخر هذا المضمون نفسه قائلًا: «وهي (الواهمة) الرئيسة الحاكمة في الحيوان حكمًا ليس فصلًا كالحكم العقلي، ولكن حكمًا تخيّليًّا مقرونًا بالجزئية وبالصورة الحسّية» [المصدر السابق، ص 231]. وفي هذه الفقرة يصرّح ابن سينا بأنّ الأحكام التي تصدرها قوّة الوهم ليست ناشئةً من العقل؛ ولهذا السبب فإنّ أحكامه ليست قطعيةً ويقينيةً وفاصلةً، بل نابعة من معطيات الحسّ والتخيّل.

ومن ناحية أخرى، فإنّ القوّة الواهمة المشتعلة، تقوم بالسيطرة على القوّة المتخيّلة وتستخدمها لتبحث لها عن حلٍّ وتخيّلٍ لإطفاء نار الكراهية والضغينة الملتهبة فيها، أو إذا كان لديها حبّ ومودّة تجاه شخص، تقوم بتحفيز المتخيّلة لترتيب خطّة مناسبة للتقرّب منه.

فالمتخيّلة والخيال طائعان وخاضعان لأمر الوهم ويخدمانه من جهتين، ويلعبان في هذا المضمار دورين: أحدهما التحفيز والإثارة لقوّة الوهم، والثاني التخيّل والتصوير لإنجاح الواهمة.

ومن هنا يمكن إدراك أهمّية إدارة القوّة المتخيّلة والسيطرة عليها، وإذا تمّ ضبط كلٍّ من المتخيّلة والخيال وتهذيبهما، فإنّ الانفعالات والعواطف الناشئة عنها تُضبط أيضًا، وتربية قوّة الوهم وإدارتها رهينة بتربية قوّة المتخيّلة ورعايتها.

ثانيًا: السيطرة على الشهوات

من الآثار والنتائج التي يؤكّدها ابن سينا لإدارة المتخيّلة وضبطها هي السيطرة على الشهوة الجنسية، وبما أنّ هناك تأثيرًا متبادلًا بين النفس والبدن، فإنّ الحالات النفسية ـ ومن بينها التخيّلات والصور الخيالية في الذهن ـ تؤثّر في بدن الإنسان وتجعله يتفاعل مع أمور، والتخيّل غير المهذّب وغير المنضبط والفوضوي يؤدّي إلى ظهور سلوكيات وفعاليات حيوانية وشهوانية. يقول ابن سينا في هذا الشأن: «ومن العجائب أنّه كما يعرض من حركة الطبيعة لدفع المنيّ تخيّلٌ ما، كذلك ربّما عرض تخيّلٌ ما لصورة مشتهاة بسبب من الأسباب ، فتنبعث الطبيعة إلى جمع المنيّ وإرسال الريح الناشرة لآلة الجماع وربّما قذفت المنيّ، وقد يكون هذا في النوم واليقظة جميعًا وإن لم يكن هناك هيجان وشبق» [المصدر السابق، ص 248].

وبعبارة أخرى إذا كانت قوّة الخيال حرّةً فإنّها تصبح منشأً لفساد أخلاق الإنسان، أي إذا لم تُشغل النفس بعمل، فإنّها ستشغلك بذاتها.

ثالثًا: الارتباط بالغيب وتلقّي الحقائق الغيبية

من الآثار السيّئة الأخرى لانفلات التخيّل وطغيانه في الإنسان، هو أنّه أحيانًا يبدأ شخصٌ مستعدٌّ بتلقّي حقيقة غيبية أثناء النوم، ويتلقّى طليعةً وومضةً من ذلك النور والحقيقة الغيبية، لكن سرعان ما تدخل القوّة المتخيّلة وتقطع ذلك الارتباط الغيبي، ولا تسمح لتلك الومضة والواردات الغيبية بالاستقرار الكامل في القلب: «ويتّفق كثيرًا أن يكون ما يرى من الملكوت شيئًا كالرأس وكالابتداء، فيستولي التخيّل على النفس استيلاءً يصرفها عن استتمام ما تراه» [المصدر السابق، ص 244]. وإذا كانت المتخيّلة منقادةً ومهذَّبةً، فإنّها لن تقف مطلقًا أمام تجلّي الأنوار الغيبية والملكوتية، وبالتالي فإنّ فسح المجال للتخيّل، وإطلاق العنان له، يمثّل حجابًا سميكًا أمام تلقّي الواردات الغيبية. ومن هنا يصرّح ابن سينا أنّ أصحّ الأحلام وأصدقها، يراها الأفراد الذين اعتادوا على قول الحقّ في حياتهم، وقهرت أنفسهم التخيّل الكاذب. [المصدر السابق، ص 245]

رابعًا: تجنّب صدور الأحكام الظنّية

من النتائج الأخرى لإطلاق العنان للمتخيّلة هو أنّ الأحكام الصادرة من قوّة المتخيّلة تعدّ أحكامًا ظنّيةً وغير قطعية، يقول ابن سينا: «إنّ الظنّ للقوّة الخيالية» [ابن سينا، المباحثات، ص 149؛ النفس من كتاب الشفاء، ص 231]. ومن هنا فإنّ أحكام القوّة الواهمة تُسمّى "الأحكام التخيّلية"؛ لأنّها مبنيّة على التخيّل، فلا تفيد القطع واليقين. وبالتالي فإنّ عدم ضبط القوّة المتخيّلة والسيطرة عليها، يقوّي في الإنسان عادةً أن يصدر أحكامًا ظنّيةً وغير قطعية، وهذا ما أنكره القرآن الكريم: ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [سورة يونس: 36].

خامسًا: تجنّب الوقوع في فخّ تجسيم الله ﷻ

من النتائج المهمّة لإدارة الخيال والتخيّل والسيطرة عليهما، هو تجنّب الوقوع في فخّ تجسيم الله ﷻ، وهذا يُعدّ من النتائج الاعتقادية المهمّة لإدارة الخيال.

ومن الآثار السلبية لحكم الخيال والتخيّل وسيطرتهما على وجود الإنسان هو التلقين المادّي والجسماني لله تعالى، بمعنى أنّ الخيال المنفلت يعدّ لله تعالى صفاتٍ جسديةً ومادّيةً مثل اليد والرجل والأعضاء والجوارح المادّية. ومن المدافعين عن تجسيم الله هو ابن تيمية وأتباعه الذين

يقولون بـ"العقل الجسماني"، وفي ضوء هذا التصوّر الخيالي لله يصرّح ابن تيمية قائلًا: «لا فرق في هذا بين أفعال الله تعالى وصفاته وبين سائر الأشياء، فإنّ الإنسان إذا أحسّ أمرًا أو تخيّله حصل له من العلم والعقل بسبب ذلك ما لم يدركه الحسّ والخيال» [ابن تيمية، بيان تلبيس الجهمية، ج 2، ص 263 و264]. وهذا التصوّر الجسماني لله تعالى وللعالم الغيبي ناشئ عن الرؤية الحسّية المفرطة عند ابن تيمية، وهو القائل: «ما لا يُعرف بشيءٍ من الحواسّ لم يكن إلّا معدومًا» [المصدر السابق، ج 1، ص 229].

وينسب ابن تيمية إلى الجمهور أنّهم يعتقدون أنّ العقل لا ينفكّ عن التخيّل، وما ليس بجسمٍ ولا جسمانيٍّ لا يمكن تخيّله والتصديق به، وبناءً على ذلك يرى أنّ الشارع وصف نفسه ﷻ بأوصاف تقرب من قوّة التخيّل، مثل ما وصفه به من السمع والبصر والوجه وغير ذلك مع تعريفهم أنّه لا يجانسه شيء من الموجودات المتخيّلة ولا يشبهه. ولو كان مقصود الجمهور أنّ الله ليس بجسمٍ لما صرّحوا بشيءٍ من هذا، بل لمّا كان أرفع الموجودات المتخيّلة هو النور، ضُرب المثال به، فقال عزّ من قائل: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [سورة النور: 35]؛ إذ كان النور أشهر الموجودات عند الحسّ والتخيّل، وبهذا النحو من التصوّر أمكن أن يفهموا المعاني الموجودة في المعاد، أعني تلك المعاني مثّلت لهم بأمور متخيّلة محسوسة. [انظر: المصدر السابق، ج 2، ص 447 و448].

ويقول مقتضى العقل الجسماني هو أن يكون الله فوق عرشه، وبما هو عظيم فلا بدّ أن يكون له جانبان، جانب عن يمين العرش وجانب عن يساره، ويكون أحدهما غير الآخر؛ لأنّ العقل الجسماني يحكم بأنّ الموجود لا بدّ أن يكون داخل العالم أو خارجه، وأنّه يمتنع وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه، وهذا هو مقتضى الحسّ والخيال أيضًا. [انظر: المصدر السابق، ج 4، ص 119]

الخاتمة

القـوّة المتخيّلـة قـوّة فاعلـة ومبدعـة بطبعهـا، وهي متحرّكة في نشـاطٍ دائـم. ومن هنـا، إذا لم يتمّ ضبـط هـذه القوّة والسـيطرة عليهـا، وتُركـت منفلتـة اللجام، يمكنهـا أن تكـون ضـارّةً. وعلى الرغم مـن أنّ قـوّة الخيـال والمتخيّلة متميّزتان عـن بعضهما، إلّا أنّهمـا تعملان في إطار مـن التفاعل والتبادل المسـتمرّ. والوظيفـة الأساسـية للقـوّة المتخيّلـة هي "تركيـب المفصّـل وتفصيـل المركّـب". وبعـد تحليل المتخيّلـة تحليـلًا ظاهراتيًّـا وبيان خصائصها، يقترح ابن سـينا حلولًا وأسـاليب عمليةً مهمّـةً، ويؤكّد ضرورة مراقبـة العقـل للمتخيّلـة واسـتخدامها مـن قبله بشـكل منهـجي وهـادف، ويـرى أنّ المتخيّلة تجـد مجـالًا أكـبر للتخيّـل في حالـة النـوم والمـرض والخـوف؛ لأنّهـا ترى نفسـها خـارج نطـاق مراقبة العقـل. كمـا أنّ إخـراج قـوّة الخيـال عن دائرة تنـاول المتخيّلـة هو أحد طـرق ضبط المتخيّلـة الأخرى مـن منظـور ابن سـينا. والحلّ الآخـر الذي يؤدّي إلى ضبـط القـوّة المتخيّلة هو إصلاح المزاج الجسـدي والاهتمـام بصحّـة البـدن، فإنّـه يلعـب دورًا كبـيرًا في ضبـط التخيّـل، وكذلـك الاهتمـام بالروحيات والتوجّـه القلبي إلى المـولى تعالى.

قائمة المصادر

ابـن تيميـة، أحمـد بن عبـد الحليم، بيـان تلبيس الجهميـة في تأسـيس بدعهم الكلاميـة، مجمع ملك فهـد لطباعـة المصحف الشريـف، المدينة المنـوّرة، الطبعة الثانيـة، 1426 هـ.

ابـن سـينا، الحسـين بن عبـد الله، الأضحويـة في المعاد، تحقيق حسـن عاصي، انتشـارات شـمس تبريزي، طهـران، 1382 هـ. ش.

ابـن سـينا، الحسـين بـن عبـد الله، التعليقـات، تحقيـق عبـد الرحمـن بـدوي، مكتـب الإعـلام الإسـلامي، قـم، 1404 هـ.

ابـن سـينا، الحسـين بـن عبـد الله، المباحثـات، تصحيـح محسـن بيدارفـر، مؤسسـهی پژوهـشی حكمـت و فلسـفهی ايـران، تهـران، 1396 هـ. ش.

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، النجاة، مرتضوى، تهران، 1364 هـ. ش.

ابـن سـينا، الحسـين بـن عبـد الله، النفس مـن كتـاب الشـفاء، تحقيق حسـن حسـن زاده آملي، مركـز النـشر التابـع لمكتب الإعـلام الإسـلامى، قـم، 1375 هـ. ش.

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، رسائل ابن سينا، تحقيق إبراهيم خروز، تركيه، 1395 هـ. ش.

ابـن سـينا، الحسـين بن عبـد الله، رسـالهی نفـس، تصحيح مـوسى عميـد، انجمن آثـار و مفاخر فرهنگی، همـدان، 1383 هـ. ش.

ابـن سـينا، الحسـين بن عبد الله، عيـون الحكمة، تحقيق عبـد الرحمن بـدوي، دار القلم، بيروت، 1980م.

ابـن سـينا، الحسـين بـن عبـد الله، المبـدأ والمعـاد، تحقيـق عبد الله نـوراني، مؤسسـة الدراسـات الإسـلامية، طهـران، 1404 هـ.

الموسوي الخميني، روح الله، الأربعون حديثًا، دار زين العابدين، بيروت، 2010 م.

حسن زاده آملي، حسن، عيون مسائل النفس، امير كبير، تهران، 1385 هـ. ش.

الشـيرازي، صـدر الدين، الحكمـة المتعالية في الأسـفار العقلية الأربعة، دار إحيـاء التراث العربي، بيروت، 1423 هـ.